أثر مناويل التواصل في المعالجة الدلالية: من التشفير إلى العرفان

د. فدوى العذاري
كلية الآداب والعلوم الإنسانية- سوسة (تونس)
ladharifadwa@yahoo.fr

تاريخ الإيداع: 2017/08/09 تاريخ القبول: 2017/08/30

ملخص البحث: سادت في القرن العشرين اللسانيات النظامية، وقد يعود الفضل في هذه السيادة إلى مركزية الزوج التقابلي ضمن الهندسة التصوّرية لدي سوسير : لسان Langue / كلام Parole. فقد كان دور دروسه عموما هو تقديم الإطار العلمي لدراسة اللغة البشرية كأنظمة علامات، حيث أجابت على تصور لساني سائد تأسس آنذاك على الأحداث اللسانية الخام brutes كمادة أوّلية للساني لمعالجة ظواهر اللغة. وهو في الحقيقة تصوّر ظلّ غير قادر على اعتبار الألسنة أنظمة جماعية Systèmes collectifs. فقد ميّز بين وجهين متقابلين للغة: من جهة اللسان كقسم نظامي مجرد ومشترك تواصليا، ومن جهة ثانية الكلام كنشاط ملموس وفردي.

فمع طروحات دي سوسير، حتى وإن احتاج الوصف اللساني البنيوي لاحقا إلى ما يسمى بـ "أعمال الكلام" بالمفهوم التداولي pragmatique للمصطلح لتطوير مبادئها ونظرياتها فإنها لا تعتبر هذه الأعمال سوى ظواهر محتملة، ولا تجدي سوى في دعم بناء نظام اللسان. فموضوع اللسانيات هو البحث في اللسان لا في الكلام (Totchnig 2000). كما تنخرط دورة الكلام ضمن منطق التواصل التشفيري communication codique، وتعرّف العلامة في هذا المنطق بموقعها داخل نظام العلامات.

وانطلاقا من المفارقات التي أحدثتها الأزواج السوسيرية عمل الاتجاه التداولي على توسيع المنظور البنيوي، وذلك من خلال الاستدلال أوّلا على أنّ الكلام علاوة على كونه تطبيقا وتحقيقا لمعايير اللسان فإنه أيضا مكوّن متغير في اللغة بالمقارنة مع الشفرات الكائنة ومولّد قويّ لشفرات جديدة. كما أن كل عمل كلام له موقع ضمن مقام يُحدَّد بمعطيات فضائية-زمانية spacio-temporelles واجتماعية تاريخية socio-historiques. لذلك اعتنت التداولية ببيان كيفية تفاعل هذه المعطيات مع نظام اللسان وكيفية تولّد المعنى ضمن مقام ووضعية معطاة (Austin 1970).

فمفهوم المقام مفهوم مفتاح في الطرح التداولي يُعنى من خلاله بالكشف عن كيفية اشتغال اللغة حسيا ضمن مقامات مخصوصة، وبأشكال انفلات هذا الاشتغال في قسم منه من الإعراب Syntaxe وعلم الدلالة La sémantique. ولكنه يتشكل أيضا في قسم آخر من خلالهما.

وبتجاوُز المقابلة بين لسان ومؤسسة Société من جهة وكلام وفرد Individu من جهة ثانية لا تنفصل التداولية عن حركة تفكير حدثية عملية تكونت ضمن مجموعة علوم إنسانية واجتماعية بظهور جدل بين المجتمع والفرد. وذلك من خلال تفاعل متواصل بين المستويات الكبرى والصغرى وفي علاقة معقدة بين معيارية الشفرات وتجدد الاستعمالات. فالتداولية تتجذر ضمن نقد إقصاء الكلام باعتباره مجرد تحقيق للسان في اللسانيات السوسيرية. كما تجددت فيما بعد بتصور مغاير مع سيميائية شارل بيرس (Charles S. Peirce 2002).

ولعلّ السؤال الأساسي الذي يعنينا في هذا العمل هو أثر مقاربات التواصل هذه في معالجة المكوّن الدلالي في النظريات الدلالية التي طبعت قرنا من العمل اللساني تقريبا. لذلك نعنى بإشكال مساهمة التصورات اللسانية

لمفهوم التواصل في توجيه زوايا النظر نحو تمشيات مخصوصة لوصف الدلالة بغاية فهم الناظم الابستيمولوجي لهذه التصورات ورصد مساهمة مختلف المستويات اللسانية وغير اللسانية في تحديد هذا المكوّن.

لذلك نحاول في هذا العمل معالجة مفهوم التواصل La communication ابتداء بنظريات التواصل ذات المنوال الخطي الموحّد والمنهج التشفيري مع دي سوسير والنظريات البنيوية التي تفرعت عن مقولاته ودارت في فلكه. لنندرج تلقائيا في بيان المآخذ التي طالت هذه المقولات مع المقاربات التداولية التي نقدت المقاربة البنيوية للتواصل، ومع ما اضطلعت به "نظرية الأعمال اللغوية" مع أستين وسورل، وما صدر بشكل مواز عن نفس المنظور ضمن نظرية الإفادة مع سبربر وولسون Sperber et Wilson 1989. فضلا عن أعمال مدرسة بالو آلتو Palo Alto في هذا الشأن التي عملت أيضا على معارضة المنوال التشفيري السوسيري. وصولا إلى الدلالية العرفانية التي آخذت التصور التشفيري بتفنيد ما قام عليه من مبادئ أولية أغفلت علاقة التواصل المنتج للدلالة بالعرفان البشري، وهي عموما مقترحات سعت إلى معالجة قضايا التواصل ودورها المفصلي في تكوين المعنى وتأويله من مناظير مغايرة وناقدة، وتطورت اليوم مع التداولية النفسية الاجتماعية والعرفانية الدلالية من خلال توسيع مفهوم "التواصل" و"التفاعل" ضمن سياقات اجتماعية وعرفانية مختلفة.

- **<u>الكلمات المفاتيح</u>: التواصل – المنوال التشفيري- التداولية – العرفان - المعنى- المقام.**

المقال:

<u>1/ المنوال التقعيدي التشفيري للتواصل:</u> تأسست نظريات التواصل منذ دي سوسير على منوال موحّد وتصور أوّلي للغة قائم على تمشّ تشفيري processus codique سعي مع دان سبربر وديدر ويلسون منوال الشفرة modèle du code . وقد بني هذا المنوال انطلاقا من النظرية الرياضية لكلود شانون Claude Shanon وصار منوال العلوم الاجتماعية والمرجع لأي إحداث علمي في علم الاجتماع.**<u>1-1-1/</u> مقومات المنوال التقعيدي للتواصل:** قدم شانون 1948 نظرية رياضية للتواصل تقوم على الالتقاء بين مجالات شديدة التنوع كالفيزياء والرياضيات وعلم الاجتماع وعلم النفس واللسانيات والبيولوجيا الذرية. وتعتمد هذه النظرية على باث يحوّل الرسالة إلى إشارات signaux وقناة canal تنقل من خلالها الإشارات والعلامات ومتقبل recepteur يعيد بناء الرسالة انطلاقا من العلامات.

وقد ألهمت هذه النظرية لعقود معظم مقاربات التواصل، ويتأسس هذا المنوال على أن المعلومة هي محتوى قار يتم نقله بشكل بسيط (وليس تفاعلا أو تبادلا). وبذلك اعتُبرت اللغة نظام علامات ورموز (صوتية ومرئية إلخ...) تستعمل لـ "نقل معلومةTransmission d'information"، وأن وظيفة هذه العلامات هي التعبير عن الأفكار قصديا. فمفهوم التواصل إذن صار مرادفا لـ "النقل القصدي لرسالة مّا"، وهي رؤية سرعان ما شاعت في العلوم الإنسانية والاجتماعية وكونت قاعدة "علوم التواصل" في الولايات المتحدة الأمريكية وفي أوروبا (Winkin 2001 : 25).

ويعترف منوال التواصل ب- م (باث – متقبل Emetteur – Recepteur) ضمنيا أن كل وضعيات التواصل يمكن أن ترجع إلى تبادل بين عاملين. ومن هذا المنطلق أعاد رومان جاكبسون صياغة النظرية الرياضية لشانون وويفر Shannon et Weaver في الخمسينات، وأعاد تبويب وظائف اللغة التي تبين كيفية وصول معلومة من مصدر Source إلى مورد destination وفق تمشّ تواصلي، حيث أن هذين الأخيرين آليتان عرفانيتان مركزيّتان للمتكلم والسامع: فالمشفِّر le codeur ومفكّك الشفرة le décodeur قدرتان لسانيتان والرسالة هي محتوى تفكير المتكلم.

2-1/ المآخذ الأساسية: عندما اهتم علماء النفس بإشكالات التواصل في الستينات اعتنوا بالمناويل الشائعة آنذاك وأبرزها المنوال التشفيري لرومان جاكبسون. وسرعان ما اصطدموا بحدوده وتغييبه للاعتبارات الأساسية الممكّنة من الوصف الدلالي: أوّلا لغياب اعتبار جاكبسون وسابقيه للرهانات النفسية الاجتماعية للتواصل. وثانيا أن الباث والمتلقي ليسا كيانين بسيطين وإنما أفراد بشرية ثرية ومعقدة يتواجه الواحد منهما مع الآخر. كما أن المقام والوضعية التخاطبية تقحم "معايير" لا توفرها مقترحات شانون وويفر وجاكبسون. الأمر الذي جعلها مناويل غير كافية.

لذلك اقترح هيمس Dell Hymes 1967 منواله الشهير "الكلام Speaking" الذي بين فيه أن وظائف اللغة أعقد بكثير. فأقام دراسته للتواصل على مكونات "**النشاط اللغوي**" ليبين تفاعلها، وركز على وظائف ظاهرة التواصل في توجيه المعنى في هذا النشاط. والقضايا ذاتها عمل عليها قمبارز John Gumperz حين بيّن تدخل عناصر أخرى غير المعارف النحوية والمعجمية في تبادل المحادثات تؤثر في المعنى (Gumperz 1989 : 55).

2/ التواصل والمعنى في المقاربات التداولية: لا يخفى مما تقدم أثر نظرية الأعمال اللغوية، التي كانت في الأصل نظرية فلسفية في اللغة تبحث في الخصائص العامة للغة، وترجع إلى اقتراح أوستين 1955 John Langshaw Austin تصور "الإنشائي " Le Performatif لتعيين كل الأقوال المكوّنة لأعمال مثل الوعد والأمر و السؤال...إلخ، وقابلها بأقوال تصف حالات حقيقية كالأقوال التقريرية والتأكيدية... وقد وجدت الأفكار المؤسِّسة لأوستين صدى لا في اللسانيات فحسب بل في فلسفة اللغة وعلم الاجتماع أيضا أدى إلى تعميق التفكير في العلاقات بين المنطق الشكلي والاستعمال اليومي للغة من جهة وبين منوال التواصل وطرق تحديد المعنى من جهة ثانية.

2-1/ **المعنى حصيلة "تواصل" ضمن "مقام":** تطورت نظرية الأعمال اللغوية مع جون سورل 1969 الذي بلور بنية أعمال اللغة وتصنيفها وعمل على ظاهرة القصدية. فقد حاول تمييز أشكال تفاعل المتكلم مع الكون ومع مخاطبيه وحتى مع ذاته. فهذه النظرية تقترب من النظرية الاجتماعية "للتفاعل التواصلي l'agir communicationnel" على معنى هابرماس Habermas 1987 الذي بيّن أن التواصل لا يقوم فحسب على

"نقل المعلومة" وإنما أيضا على بناء العلاقات الاجتماعية وتغيراتها، كما يقوم على أخذ موقع ضمن مقام موضعي معطى وتحديد بعض الأنظمة التواصلية.

في هذا الإطار يعتبر العمل اللغوي ومعناه متصلين بذاتية المتلفظ، فهذا يضطلع بأدوار تحادثية ويتخذ موقعا بالمقارنة مع الآخرين، ويعبر عن علاقات قصدية تجاه العالم، وبذلك فإن العمل اللغوي يندرج ضمن مقام قد لا يسبقه بالضرورة. بمعنى أن اللغة هنا بصدد البناء والتغيير وتخصيص المقامات.

وما أضافته أعمال أوستين وسيرل لهذا المبحث أن منوالا للتواصل يكون مفيدا pertinent إذا كان قادرا على أن يضع في اعتبار المعنى الجمل في اشتغالها أثناء الاستعمال. وبما أن "الكلام هو العمل parler c'est faire " فإن ذلك يعني إنجاز عمل. وبالتالي فهو عمل اجتماعي، فكل متكلم يبني علاقة مع مخاطبه يتعين أن تحلل بمفاهيم "الأدوار rôles" و "المواقع positions".

وكل أشغال التداوليين في اللغة سواء كانت لسانيات التلفظ أو التداولية المدمجة أو نظرية الأعمال اللغوية أو التداولية النفسية السوسيولوجية تقود تدريجيا نحو تلاشي المنوال التقليدي للشفرة وترسل نحو مفهوم مركزي هو المقام Contexte.

إن المقاربة التداولية و المقاربة التفاعلية interactionniste التي ينادي بها التداوليون مؤخرا (Orecchionni 2001) تسمحان بالتساؤل حول الموضوع المخوّل للمرور من "الكلام الاجتماعي" لبلوغ "حواف التفاعل le co-interlocutif". فالمتكلم حامل لمعارف ويبني مع المخاطبين كوْنًا إحاليًّا univers référentiel مشتركا ينتج **المعنى ويمكّن من تأويله**، وهذا مكمن التأثير الذي أحدثته الدراسات التداولية في وصف إنتاج الدلالة وتأويلها من خلال بناء تصور جديد للتواصل. فالخطابات ليست تابعة ولا مستقلة عن مقامات إنتاجها، وإنما هي التي تصنع مقاماتها في نفس الوقت الذي تحدث فيه، ومن ثم فإن المعنى حصيلة تشكلات التواصل ومقاماته (Fortin 2007 : 125).

فالحقيقة الاجتماعية في نظرية الأعمال اللغوية يتعين أن تكون حاضرة وليست خارجا ثابتا يُفرض ضمن العوامل الاجتماعية، ولكن كبناء متفاوَض بشأنه وقابل للتغيير أثناء التواصل والتبادل والتفاعل، حيث يكون المعنى ويتشكل ضمن المقام الذي يُصنع فيه.

2-2/ معايير "الإفادة" المحدّدة للمعنى في منوال التواصل: عن نفس المنظور صدرت نظرية "الإفادة" La théorie de la pertinence لسبربر وويلسون كخطوة أخرى لفهم اشتغال التواصل مبينة أن كل نظريات التواصل السابقة قامت على منوال الشفرة، وأن هذا غير مؤهّل لوصف التفاعل البشري inter-humaine.

وقد وقع تدقيق جد مهم هنا، إذ لطالما اعتُبرت اللغة حاملا للأنشطة الذهنية، حيث اعتبر دي سوسير أن اللسان يمثل " الفكر المنظم في مادة صوتية" (De Saussure 1972 : 155). وبالنسبة إلى سبربر وولسن فإن التواصل اللفظي والفكر ليسا من نفس الطبيعة، فالفكر هو حساب ذهني للكون المحيط، وهو أثرى من مجرد أقوال لسانية "بما أن الرسالة اللسانية ليست سوى تمثيل غير تام لأفكار المتكلم وما نضعه على الورق ليس سوى سمات سوداء، لكن أفكارنا تبقى دائما في مكانها في أدمغتنا" (Sperber et Wilson 1989 : 11)، وبما أن المتكلم والمخاطب لا يملكان نفس المعارف ولا نفس التجارب في العالم فإن سبربر وويلسون قدما تعريفا جديدا للمقام:

- لا يتعلق الأمر بما يوجد فعلا بل بما يعتقد المتخاطبون أنه حقيقة.
- لا يتعلق الأمر بمجرد ما يعتقدونه صادقا vrai وإنما بما يتفقون على مقبوليته ومعقوليته plausibilité، أي بافتراضاتهم.
- هذه الافتراضات ليست فحسب ما يعتقدونه في أذهانهم لحظة القول، وإنما أيضا ما يقدرون على تشكيله وإبلاغه بواسطة استدلال مّا انطلاقا من افتراضات أخرى.
- وأخيرا ما يهم من هذه الافتراضات في التواصل هو تلك المتجسدة تبادليا، وكل واحد معنيّ بها ويعتقد أنها قابلة للإسناد إلى الآخر، والآخر يعلم أنه يعتقد ذلك.

كل تلك معطيات تتعلق بمفهوم التواصل البشري وتجسد المكونات التي تشكله وتساهم بالتالي في بناء المعنى المؤوّل. أما تعريف "الإفادة" - أو "المناسبة La pertinence" كما يحلو للبعض تسميتها- في هذه النظرية فإنها متصلة بمفاهيم "الكلفات les coûts" و"الآثار العرفانية les effets cognitifs". فالكلفة هي الجهد الضروري للتأويل، أما الأثر العرفاني لقضية مّا ضمن مقام فهو مجموع القضايا التي يمكن أن يُستدل عليها من خلال تلك القضية نفسها حين تنخرط في مقام معين. كما لا يُستدل عليها من خلال مقام واحد. مثال ذلك: مقام يشمل في الآن نفسه فكرة مجيء لوبان LePen في برنامج تلفزي وفكرة أن لوبان وشيراك لا يمكن أن يلتقيا دون تخاصم، فإن مجرد إعلان مجيء شيراك يتضمن الأثر العرفاني التالي: إمكانية التخاصم (Fortin G : 2007 : 125). فالإفادة تسمح بالتكهن بتأويل معنى قول مّا ضمن مقام معطى، أي ضمن عملية التواصل ومكوناتها، فتُعرّف بكونها مجموع القضايا المدمجة في القول التي تجعله مفيدا Pertinent قدر الإمكان.

من جهة أخرى فإن الإفادة تجيب عن الإشكال الحارق لتحديد الافتراضات – ضمن الافتراضات المتجسدة بشكل متبادل - التي ينتقيها المتخاطبون لتكوين المقام الذي يتعين أن يُؤوّل ضمنه. فالقول إذن يعمل على تكوين الوضعية المقامية التي يتعيّن أن يُؤوّل ضمنها.

لقد حاول التداوليون المحدثون – من قبيل سبربر وويلسون – بشكل صريح تحيين المعايير الضمنية التي تسيّر التواصل الشفوي من خلال تقييدها بمفهوم "الإفادة"، مما بيّن أشكال تداخلها وارتباطها الوثيق بمعايير تأويل معاني الأقوال. وبالأحرى فإن ضبطا لمبادئ ابستيمولوجية مخصوصة مسيّرة لعملية التواصل يقتضي بالضرورة ضبطا لتوجه مخصوص في الوصف الدلالي للأقوال.

2-3/ التواصل تمشّ دائري معقد لإنتاج المعنى وتأويله: من جهة موازية حاولت مدرسة **بالو آلتو Palo Alto** منذ 1950 معارضة المنوال التشفيري وأهم أعلامها قريقوري باتيسون Gregory Bateson وإدوارد هال Edward Hall وإيرنغ قوفمان Erring Goffman. فلئن اعتبرت نظرية شانون مجدية في مجال الهندسة التواصلية فإن أعلام بالو آلتو ذهبوا إلى أن التواصل يتعين أن يعالج من زاوية العلوم الإنسانية. وتناولوه باعتباره تمشيا دائريا ذا مستويات معقدة **ومقامات** مضاعفة مزيحين شيئا فشيئا مسلمات شانون. وهذا المفهوم الحركي للتواصل (المقابل للمنوال الخطي Télégraphique) للتداوليين الأوائل يضع في الاعتبار عوامل أخرى: فالمعنى هنا ليس كيانا قارا وإنما هو كيان متحرك متغير بواسطة "النقل la transmission" (Watz lawick, Beavin et Jackson 1972).

وسع ما تقدم مفهوم "التواصل" فقد أدرج إدوارد هال مثلا البعد المقارب La dimension proxémique المحدّد بالتصرف الفردي والجماعي في الفضاء (Hall 1972). ويحيل ذلك على أثر هذا الضرب من التصورات المغايرة للتصور المسيّر للمنوال التقعيدي التشفيري للتواصل في وصف المعنى وأدوات إنتاجه أو تأويله. فإدراج مفهوم "المقام" في تحديد عملية التواصل والمناويل المسيرة لها يعدّ آليا تغييرا جذريا في وسائل التوصيف اللساني للتكوّن والتأويل الدلاليين للأقوال ضمن عملية التواصل نفسها من تمشّ خطي معلوماتي إلى تمشّ حركي معقّد. ولئن تدخلت اعتقادات المتخاطبين وافتراضاتهم ومعارفهم في تحديد المنوال التواصلي في المقاربات التداولية فإن تلك أيضا تتحكم آليا في تحديد مكونات المعنى وتأويله ضمن إطار نظري وإجرائي للوصف يشمل بالضرورة الحقائق الاجتماعية والنفسية واللسانية وغيرها. فتصوّر معيّن للتواصل يفضي آليا إلى تمشّ مخصوص من الوصف للمكوّن الدلالي للبنية أو القول المدروسين.

3/ الدلالي البلاغي مع النقد العرفاني للمنوال التشفيري للتواصل: من جهة أخرى بيّن بعض الدارسين الدلاليين العرفانيين Raccah 2011 أيضا إمكانية اختصار العلاقة بين اللسان Langue والفكر la pensée بإدغام مفهومي "معنى" sens و "تصوّر" Concept، مما يستلزم عدم اعتبار تعدد الألسنة Polyglottisme ولا الأسئلة النظرية المتصلة بالترجمة، لكنه يعِدُ بجعل "كراس شروط" علم الدلالة La sémantique أكثر بساطة بشرط عدم المبالغة في الأخذ من النحو.

فالخيارات التحويلية التوليدية مثلا التي أمكن الدفاع عنها لنحو خمسين سنة في نظر هؤلاء الدلاليين العرفانيين جسدت محاولة مغالية في التبسيط والاختزال بحثا عن الجدوى، مررت بواسطتها الشكلنة المنطقية كضمان للعلمية، لكنها انتهت إلى طرد كل السمات الخصوصية للألسنة البشرية لفائدة "تجميلات" حجاجية وتداولية وبلاغية، بل وجمالية أيضا لا علاقة لها باللسانيات. وقد تواصل هذا التبسيط حتى أصبح تقليدا لم يربأ عدد لا بأس به عن مواصلة تبنّيه (Raccah 2011 : 152). وإذا ما اعتُبرت أيضا بعض الظواهر المتصلة بتعدد الألسنة، كالأسئلة البلاغية المطروحة في علم الترجمة والإخلالات المتواترة بين الخصائص الحجاجية للخطابات والخصائص المنطقية للتمشيات الاحتمالية التي تعالجها، فإن الاستمرار على هذه الوضعية "التقليدية" في رأي قسم من العرفانيين أضحى غير ممكن.

لهذه الأسباب يقترح راكا تصورا مغايرا للتواصل اللغوي وللدلالة وعلاقتهما بالحجاج والبلاغة بغاية المرور من التبسيطات المجحفة للسانيات التقليدية واستشراف معالجة للظواهر العالقة تستند إلى مقاربة تفارقية contrastive تستند بدورها إلى ملاحظات واختبارات تجريبية. وتخطيط المحاور الرئيسية لهذا التصور كما يلي:

- تصنع الخطابات المعنى لأولئك الذين يستمعون ويتوسلون بوسائل لفهمها.
- تشغّل الخطابات وحدات لسان معطى، فلفهم خطاب مّا في لسان **ل** لا بد من التحكم فيه والتمكن منه.

تتفاعل الخطابات أحيانا حول السلوكات، فإذا كان رد الفعل متصلا بمعنى الخطاب (وليس –مثلا- بحدة الصوت) فإنّ أحد المظاهر –على الأقل- المسبّبة لرد الفعل يتصل بوحدات اللسان المعتمدة في الخطاب، إذ ينتقي مؤلّف الخطاب وحدات اللسان بهدف الحصول من مخاطبيه على رد الفعل المنشود، فالمتكلم يستعمل وحدات معينة في اللسان للتأثير في مخاطبه. ومثل هذا التأثير والتحريك manipulation له دور فعلا حتى وإن لم تكن النتائج كما يتوقعها المتكلم، لأن السامع لا يمكنه ألا يبني معنى لأقواله التي يملك الوسائل لفهمها. ووحدات اللسان المستعملة من قبل المتكلم توجه السامع للطريقة التي يتعين أن يبني بها هذا المعنى (وإن كانت غير مؤهلة بصفة حتمية على ضمان نتيجة هذا البناء).

وقد تبيّن منذ ديكرو وأتباعه أنه إذا كانت وحدات الألسنة البشرية تعلّم بناء التصورات – وفقط التصورات- فإنّ ظواهر كثيرة قوية robustes (ملاحظة في مختلف أنواع الوضعيات) تبقى غير مفسرة، ومفارقات كثيرة تنتاب اللسانيات إلى الأزل.

وبدون تكرار كل النقاش الدلالي والمنهجي والفلسفي الذي أثارته هذه الملاحظات، فإن راكا يدعم فكرة أنه حتى عندما يسمح بالتوصل إلى تصورات وإلى علاقات بين التصورات فإن فهم خطاب ينتج أوّلا "زوايا نظر Points de vue" وعلاقات بين زوايا نظر. ويؤكد على هذا المفهوم وعلاقته بمفهوم ديكرو "التوجيه الحجاجي Orientation argumentative"، وأيضا على علاقته بمفاهيم باختين Bakhtine "تعدد الأصوات Voix

polyphonique" و"الكلمات المأهولة Mots habités" (Raccah 2011 : 153). وقد حاول بيان أنّ اعتماد هذه الفكرة ضمن إطار تصوّر تأثيري تحريكي manipulatoire للتواصل اللغوي يخوّل التوفيق بين اللسانيات والبلاغة (وبين اللسانيات وعلم الترجمة). وقد حاول بيان أنّ تمشيا تجريبيا حقيقيا (مؤسَّسا على الملاحظة والتجريب) ضروري وممكن، حتى في الزوايا العميقة للعلوم المرنة التي تتناول فنون اللسان (Raccah 2011 : 154).

3-1/ **ضرورة تطوير تصور التواصل اللغوي:** إذا تبين أن وحدات اللسان تفرض قيودا على بناء معاني الأقوال، فإن ذلك يفرض أن نتيجة **التواصل** اللغوي، إن لم تكن غايته الأساسية، هي بناء المتلقي **معنى** لكل قول، خطابا كان أو نصا، ويفرض اعتبار هذه العلاقة بين التواصل وبناء المعنى بدوره أن يتوقف التصور المسند إلى دلالية الألسنة sémantique des langues –في جزء منه على الأقل- على العلاقات بين الدلالة والبلاغة (Raccah 2011 :155).

واعتبر راكا 2011 أن دراسة دلالة الخطاب لا يمكن أن ترتكز على تصور لساني للتواصل يتحدد وفقه فهم قول ما بوصف خصائص الكيانات. وبيّن أسبابا أخرى لضرورة التخلي عن هذا التصور المعلوماتي informationnelle للألسنة، وهي أسباب تدفع نحو إلغاء التصور النقلي transmissionnelle للتواصل الذي يستند إلى التصور المعلوماتي. ويقترح تعويضه بالتصور التأثيري التحريكي manipulatoire.

ويرتكز التصور المعلوماتي للألسنة على "استعارة " وصفها ريدي Reddy 1979 واشتهرت طويلا مع جونسون ولايكوف Johnson et Lakoff 1980، وسماها راكا "استعارة الأنبوبLa métaphore du tuyau"، ومفادها أن عملية التواصل تصل ذاتا متكلمة Sujet parlant (باث ب Emetteur E) بمؤوّل Interprète (متقبل م recepteur R):

1- الباث ب له **معلومة** في ذهنه للقول.
2- ب **يشفّر** ما عنده في **رسالة**.
3- ب **ينقل** الرسالة عبر قناة التواصل.
4- المتقبل م يتلقى الرسالة **ويفكّ تشفيرها**.
5- نتيجة فك التشفير يتكوّن **التأويل** الذي كوّنه م لما قاله ب.

فإذا كانت عمليات **التشفير والنقل وفك التشفير** سليمة فإن م يتحصل على إعادة بناء لما كان في ذهن ب.

ووفق هذا التصور للتواصل اللغوي فإن الافتراض القاعدي يقيم تمثّلا معقّدا للمعنى على تجميع أفكار أبسط، لذلك فإن هذا الافتراض (أن كل فكرة هي حصيلة مجموعة أفكار أبسط) هو دون شك غير مقبول" (Raccah 2011 : 157).

بذلك اعتبر راكا أن هذا التصور للتواصل يشكو من إخلالات عديدة منها دفعه نحو إخراج البلاغي من التواصل اللغوي حيث لم يُأخذ بعين الاعتبار أثر الخطاب على الأدمغة في هذا التصور. فقد اعتُبر البلاغي إذن ذا أثر تكميلي غير أساسي في التواصل، رغم ما بني على هذه "الاستعارة" مع رومان جاكبسون من تصوّر للعلاقات بين اللساني والشعري...

من هذا المنطلق أقر الدلاليون العرفانيون عدم التجانس الجذري لهذه الاستعارة. وفنّدوا المبادئ التي قامت عليها ومنهم من أسّس تصورا مختلفا يقوم على مفهوم التأثير والتحريك manipulation (Raccah 2008) .

ففيما يخص المقارنة بين التمثيلات الذهنية من الضروري - حتى نتكلم عن إعادة بناء ما يوجد في دماغ ب - بيانُ أن التمثيل الذهني الذي يكوّنه شخص ما ليس سهل البلوغ إلا للشخص ذاته في أحسن الافتراضات. والسبيل الوحيد لإقامة مثل هذه المقارنة هو تقمّص دور المتخاطبين حتى يمكن إبلاغ ما يُتصوّر أنه تمثيل لهما. وهنا نعود إلى الصعوبة الأولى بشكل مضاعف: كيف يمكن للملاحظ معرفة أن ما سيؤوّل موافق تماما لما يريد المتكلم قوله؟

أما فيما يخص مسألة "**النقل** Transmission" فإن القضية المادية تتوقف عند وصول الاهتزازات الصوتية إلى أذن المتلقي، أما ما ينقل للدماغ فهو مدّ عصبي ينتجه المتلقي. فلا يوجد إذن نقل من باث إلى متلق وإنما إعادة بناء يقوم بها المتلقي مستندا إلى مثيرات ومحرّكات بث ب.

أما فيما يخص التشفير وفك التشفير فإن هذا الضعف في المنوال القناتي Tubulaire قد لوحظ عدة مرات من قبل جاكبسون نفسه. فإما أن يكون النقد هنا مرنا كما فعل قريلو Grillo الذي اعتبر أن التشفير والسياق مشتركان بين الباث والمتلقي، ولا داعي لعدم التفكير في **الفهم** compréhension la كنتيجة لعمليات التناظر والتبادل في التشفير وفك التشفير (Grillo 2003). أو أن يكون النقد حاسما كما هو الشأن مع راستي في قوله: "تختزل استعارة التشفير اللسانَ في شفرة وتختزل علاماته في دوال بسيطة طبقا لمبادئ الوضعية المنطقية Positivisme logique" (Rastier 1995).

أو أن يستند النقد إلى دراسة تعتبر الاختلافات مهمة بين الألسنة البشرية الطبيعية واللغات الشكلية (Raccah 1998)، وترى أن التصور التشفيري للألسنة يختزل الألسنة البشرية في لغات شكلية ولا يأخذ بعين الاعتبار الظواهر الدلالية التي تكوّن الخصائص الأساسية للألسنة(Raccah 2013 : 158).

أما فيما يخص مسألة (وجود المعنى قبل التلفظ) التي يقتضيها المنوال التشفيري، فإن أسبابا عديدة ابستيمولوجية وفلسفية ومنهجية تدفع نحو تفادي القول بـ"معنى لا يكون معنى قولٍ مّا وإنما يسبق القولَ". إذ مادام المعنى سابقا للقول لماذا يخاطب المتكلم نفسه؟ فهذه حجة قوية عل افتراض أن الفكر في شكله القولي لا يسبق الخطاب، وإنما على العكس هو نتيجة تأويل هذا الخطاب. وهو الخلط الذي ينتجه "المفهوم المشترك" بين "معنى" و"تصوّر". والاستدلال على ذلك ومعالجته يجعلان مشروع "دلاليّة sémantisation" قسم من البلاغة مخوّلا لاعتبار مظهر مهمّ من فن القول كمكوّن لدلالية الألسنة البشرية.

أما مسألة اعتبار التصور القناتي للتواصل اللغوي كبديهة - رغم كل عيوبه – في أعمال ريدي وجونسون ولايكوف فتُفسَّر بتضمّن الإحالات التقليدية على قضايا التواصل اللغوي في معظم الألسنة الغربية لهذا التصور القناتي. لكن العمل على ألسنة أخرى عديدة لا يضمن صلابة تصوّر علمي لهذا التمشي.

لذلك اقترح راكا إمكانية العودة إلى تصور للتواصل اللغوي استعمل دوما بشكل ضمني في معظم أنشطة علوم اللغة والبلاغة لعدم وجود الأفضل قوامهما يلي "**لا تنقل الخطابات المعنى وإنما تحفّز السامعين وتحركهم لبناء المعنى الذي ينشد المتكلم بناءه**". لذلك رأى أنه من الممكن المرور من تصوّر منطقي للمعنى دون السقوط في النفسانية psychologisme، فللتوقف عن إلحاق المعنى بالمرجع والدلالة بالتصورات يكفي اعتبار دلالة وحدات لسان بشري كمجموعة من القيود والضغوطات الموجّهة نحو طريقة بناء "زوايا النظر".

خلاصة: تظهر إذن العلاقة الوثيقة بين مناويل التواصل والمبادئ الابستيمولوجية المسيّرة لها وبين التوجهات الوصفية للمكوّن الدلالي للأقوال ضمن أهم النظريات اللسانية، فمقاربات كثيرة أزاحت المنوال "الخطي" التشفيري النقلي للتواصل وركزت على الخطاب discours كعمل تواصلي ومنها كما قدّمنا:

- الأعمال اللسانية حول الروابط Embrayeurs (الإشاريات Déictiques والضمائر...) التي دعت إلى إرساء القول ضمن وضعية تلفظ وانطلقت مع رومان جاكبسون وإميل بنفينيست في الستينات.
- نقاشات الفلسفة التحليلية والتداولية الأنقلوسكسونية ممثلة في أعمال أوستين وسيرل حول الأعمال اللغوية في الستينات والسبعينات.
- الأبحاث التداولية اللسانية وتحديدا نظريات الحجاج والاقتضاء Argumentation et présupposition التي اعتُبرت أعمالا لغوية مخصوصة في الثمانينات(Amscombre et Ducrot).
- النظريات النفسية الاجتماعية حول التفاعل المطوّرة تحديدا مع بالو آلتو ومع قوفمان...
- أعمال قامبرز وهيمس حول أجناسية التواصل L'ethnologie de la communication (Gumperz et Hymes1972).

- ومؤخرا أعمال الدلاليين العرفانيين الساعية إلى تثبيت إدراج المكون الدلالي- بما في ذلك القسم البلاغي - في اعتبارات تصوّرٍ للتواصل اللغوي. ويقتضي هذا أساسا إزاحة المنوال التشفيري للتواصل لفائدة مقترحات ومناويل أخرى من قبيل المنوال التأثيري التحريكي لبناء **المعنى** أثناء التواصل.

تبين مما تقدم إذن قطع المبادئ الابستيمولوجية الأساسية في المقاربة التداولية في علوم اللغة لمنوال التواصل مع المقاربة النظامية التقعيدية canonique الصادرة عن النظرية الرياضية. وتنبني هذه المبادئ أساسا على الاهتمام بالأحداث اللغوية ودلالاتها ومعانيها في علاقتها بمقاماتها الحقيقية. على شكل يلخص فيه فيليب بلانشي Blanchet سؤال التداولية في السؤال التالي: "كيف تنتج اللغة **الدلالةَ**، بمعنى الأعمال **ومعانيها**، في **المقام التواصلي** أثناء استعماله من قبل متخاطبين؟" (Blanchet 1995 : 9).

وبذلك فإن المقاربة التداولية الاجتماعية تخلت عن المعالجة اللسانية البنيوية النظامية للغة بالتركيز على استعمال اللغة أثناء اشتغالها، أي أثناء التواصل والتفاعل الحقيقيين بين المتخاطبين ضمن المقام. وحينئذ لا يُتحدث عن باث ومتقبل وإنما عن متفاعلين inter actants ومتلفظين موازين co-énonciateurs يشاركون في تفاعل سوسيولساني يباشر التواصل كأحد الطقوس أو المراسم الاجتماعية المؤسسة على التواضع والتعاون (Fortin .G 2007 : 109).

من جهة ثانية قطعت المقاربات الدلالية العرفانية مع المنوال التشفيري للتواصل من جهة أشكال تكوّن المعنى عرفانيا وتواصليا، حيث اعتبر هذا التصور للتواصل مشتملا على إخلالات عديدة أهمها إخراج البلاغي من التواصل اللغوي، حيث لم يُأخذ فيه بعين الاعتبار أثر الخطاب على **الأدمغة** في هذا التصور. فقد اعتُبر البلاغي ذا أثر تكميلي غير أساسي في التواصل، رغم ما بني على هذه "الاستعارة" مع رومان جاكبسون فيما بعد من تصوّر للعلاقات بين اللساني والشعري...

لذلك تم الدفع مع شق من العرفانيين نحو تقبّل أنّ تصوّرا تأثيريا conception manipulatoire للتواصل اللغوي يقوم على التحفيز والتحريك هو وحده الممكّن من تفادي المفارقات والاستحالات les absurdités التي تسم مناويل خرى كالمنوال التشفيري.

- **زوايا نظر:**

تطورت اليوم الفرضيات التداولية النفسية الاجتماعية مع أعمال رودولف قيليون Rodolphe Ghiglione وأ. ترونيون Alain Trognon ور. فيون Robert Vion وم. برقر Marcel Burger الذين بينوا إلى أي حد تتكوّن الهوية l'identité في خضم إنتاج الخطاب وتأويله. وينخرط هؤلاء ضمن التوسيع الابستيمولوجي

للتفاعلية الرمزية l'interactionnisme symbolique لقوفمان، حيث يعرَّف كل متكلم بضرب من "المظهر التعريفي Profil identitaire" المبني في سياق المعارف المتبادلة للمتخاطبين Burger 1994.

أما مع شيليون وترينيون في « où va la pragmatique ? » فقد بيّنَا أن المتخاطبين ينخرطون في فضاء مُدار ضمن اشتغال لعبة تواصلية، وأن هوية الفواعل لا تفهم إلا في علاقة بهويات أخرى في فضاء حوار. وكذلك فيون 1992 الذي بين أن هذه الفواعل تُبنى بالتوازي أثناء استعمال اللغة وضمن نوع من العلاقة الدائرية الاجتماعية والتخاطبية والنفسية التي تصنع مختلف أبعاد الهوية.

وقد ظهرت أخيرا أسئلة منهجية جديدة ركزت على التمثيل الابستيمولوجي والانتروبولوجي والإيطيقي (علم الأخلاق) المقارني comparatiste (Guy Juequois 1989)، تواصل بشكل ما المشروع التداولي من خلال مفهوم " المحور المقارني topique comparatiste المطوَّر ضمن المنهج المقارني في العلوم الإنسانية، والذي يرى أن كل سلوك بشري ينتظم حول شكل مّا من المقارنة (Blanchet 1995 : 125).

زوايا النظر هذه غير المتجانسة تشمل أيضا إضافات – في التحليل الاجتماعي للخطاب وفي التفاعلية الاجتماعية أو العرفانية أو في اللسانيات السيميائية- تبني مقاربة تجتمع حول الخطاب.

المراجع:

_ دي سوسير(فردينان) 1985: "دروس في الألسنية العامة": تعريب صالح القرمادي- محمد الشاوش- محمد عجينة. الدار العربية للكتاب – تونس.

-Anscombre et Ducrot 1995 : « l'argumentation dans la langue » ? Mardaga.

-Austin 1970 : « Qand dire c'est faire »- Seuil- Paris .

- Blanchet (Philippe) 1995 : « La pragmatique d'Austin à Gauffman » Paris Bertrand La coste.

-Fortin (Gwenolé) 2007 : « L'approche socio-pragmatique en sciences du langage : principaux cadres conceptuels et perspectives » université de Nantes : p-p : 109- 129.

-Guiglione (Rodolphe) et Trognon (Alain)1993 : « Où va la pragmatique ? de la pagmatique à la pscychologie sociale – presses universitaires de Grenoble.

- Goffman (ERVING) 1993 : « La mise en scène de la vie quotidienne» Vol1/ la presentation de soi » Paris : minuit.

-Grillo (Eric) 2003 : « Parler la même langue »- MAG philo. Revue electronique. Langage N° 9 – 2003.

- Hall (Edward) 1971 : « La dimension cachée » Ed- du Seuil

-Jackopson (R) : 1963 : « Essais de linguistique générale » minuit –Paris.

- Johnson (Marc) et Lakoff (George) 1980 : « Metaphors we live by » - university of Chicago press.

- Jucquois (Guy) 1989 : « La méthode comparative dans les sciences de l'homme » Louvain – la- Neuve ; Peeters.

-Peirce 2002 : « Œuvres philosophiques, pragmatisme et pragmaticisme » Ed du SEUIL.

-Raccah (P-Y) :- 2008 : « Contraintes linguistiques et compréhension des énoncés : la langue comme outil de manipulation » . in « Entretiens d'arthophonie » pp 61- 90 .

:- 2013: « Les questions rhétoriques sont-elles des questions sémantiques » Revue de sémantique et pragmatique. N° 30 p-p : 151- 173.

- Rastier (F) 1995 : « Communication et transmission » Césure N° 8 p-p 151- 195.